إسهامات أدب الطفل، والجمهورية الجديدة

أ. رجاء محمود حسن

مخرجة مسرح

تقديم

يرتبط مصطلح الجمهورية الجديدة أكثر ما يرتبط بتنمية البشر والإنسان، فالجمهورية الجديدة هي دولة يتمتع فيها المواطن بكرامته، من حياة كريمة وسكن مناسب وصحة جيدة؛ لذلك جاء هذا المصطلح لمواكبة تحديات العصر، ومواجهة حروب الجيل الرابع والخامس، وأخطر ما في هذه الحروب أن الدول تستخدمها لاحتلال العقول بدلًا من الأوطان، ثم تتحكم في هذه العقول بالطريقة التي تخدم مصالحها، وهوما يتطلب استحداث مدن ذكية تتنبأ بهذه الحروب وتتحكم فيها، فالجمهورية الجديدة ليست رد فعل لأحداث تدورمن حولها، وإنما هي من تصنع الأحداث، وتكون فاعلًا أساسيًا فيها، وعلى ذلك فالجمهورية الجديدة تحتاج طريقة تفكير جديدة أيضًا ليست نمطية كما كان في السابق، تحتاج عقولًا جديدة، وتحالفات استراتيجية جديدة مضادة، لا تقوم على الأيديولوجيات والأفكار، وإنما على المصالح المشتركة التي لا يعرف العالم الآن لغة غيرها، والجمهورية الجديدة تهتم بالشباب، باعتبارهم قادة المستقبل، وأمل الأمة في النهوض والتنمية، وهي جمهورية تبني في الداخل وعينها على الداخل والخارج معًا، ومن ثم فهي تهتم بالأطفال الذين هم بناة المستقبل، وكان لزامًا أن يتخذ أدب الطفل ما يواكب هذه الجمهورية[1].

ما يسهم به أدب الطفل تجاه الجمهورية الجديدة

تشكيل شخصية الأطفال

وذلك من خلال ما يقدمه من قيم تربوية وأخلاقية ومعرفية واجتماعية ونفسية ولغوية وجمالية، ومن خلال ما يقوم به من تنمية الذوق الأدبي والفني والجمالي، وتنمية الحاسة النقدية، وتنمية القدرات الإبداعية، وتنمية القدرة على الملاحظة والتفكير المنطقي السليم، وربط السبب بالنتيجة، وتعزيز الالتزام بالنظام العام والأنماط السلوكية الإيجابية، وتقديم حزمة من المعارف في التاريخ والجغرافيا والعلوم والطبيعة... إلخ، وتقديم المعرفة العلمية على نحو شيق، وتهيئة الأطفال كي ينهضوا بدور إيجابي في المستقبل، والعمل على تشكيل إنسان فعال مفكر ومبدع قادر على التفكير والتخطيط والتطوير واتخاذ القرارات المناسبة في مختلف الميادين، وتقديم قيم لغوية سليمة، وتنمية الثروة اللغوية للطفل وتشذيبها، وتقديم شخصيات تكون قدوة للطفل، وغرس السلوك السليم، وتشكيل عادات اجتماعية سليمة، وعلاج بعض الأمراض النفسية كالخجل والعدوانية، وغرس القيم الروحية والدينية السليمة، وقيم العمل الشريف والإعلاء من شأنه، وتقوية الروح الوطنية والقومية والإنسانية، وتفريغ الشحنات والانفعالات النفسية بشكل صحي سليم، بناء إنسان جديد ومتميز من خلال

إعداد الطفل إعدادًا إيجابيًا، بحيث يكون مستقلًا ومقدرًا لمسئولياته الاجتماعية المختلفة. وللتأكيد على ضرورة تشكيل شخصية الطفل ينبغي أن تلعب الشخصية، حيث يتوحد معها ويتمثل كثيرًا من قيمها وسلوكها؛ ولذلك يجب أن تراعي بشكل كبير أبعاد هذه الشخصيات عند اختيار القصة أو المسرحية أو غيرها لتقديمها للطفل.

وأهم المعايير المرتبطة بالشخصية، هي:

- أن تكون الشخصيات مألوفة لعالم الطفل، بحيث يتعايش معها، مثل أن تكون من عالم الأسرة، أو الحيوانات، أو الأقران، أو الزهور، أو الطيور، أو الأشجار التي تتفاعل في عالم شبه إنساني في علاقاتها بحيث تتكلم وتبكي وتلعب وتفرح وتحزن.
- أن يكون عدد شخصيات المشاركة في الحدث قليلة؛ بحيث يستطيع الطفل التركيز.
- أن تكون الشخصيات بعيدة عن المثالية المطلقة، وأن تكون في مستوى الواقع، متباينة، تقترف الخطأ وتسعى إلى الصواب، وتتغير في النهاية إلى الأفضل، فإذا تم تصوير الشخصيات على أنها تملك شخصيات إيجابية فقط، فإن الطفل قد يشعر عن طريق المقارنة بأنه سيء، ولا يكون راضيًا عن نفسه.
- يجب أن تظهر شخصيات القصة النساء والرجال في أدوار مختلفة تعكس قدراتهم على صنع القرارات وحل المشكلات، وعرض أنواع مختلفة من المشاعر.
- يجب أن تكون الصور واقعية وتعكس شخصيات الناس الحقيقية، والاختلافات بينهم، مثال: الأشخاص المعاقين، وأصحاب الأعمار المختلفة، وذي الخلفيات الثقافية المختلفة.
- أن تقدم الشخصيات بشكل واقعي، ومنافٍ للعنصرية والتعصب، وألا تركز على صنف واحد من الشعوب [٢].

تعليم أدب الحوار

فالحوار يحقق ألفة النفوس، ويربط العواطف، ويصحح لغة العلاقات الإنسانية التي تجذب الإنسان إلى أخيه الإنسان، وبالحوار يخلق مناخ تسوده الطمأنينة، وروح التعاون والمشاركة، واحترام حق كل طرف في الحوار في تبنى الآراء والمواقف والدفاع عنها في إطار من الشرعية.

وللحوار الجيد الفعال قيم، يجب الالتزام بها، ومنها: الصدق وتحرى الحقيقة، والتزام الموضوعية في الحوار، وطرح الأدلة بالمنطق السليم، واتسام أطراف الحوار بالتواضع، وإعطاء الفرصة للآخرين للتعبير عن آرائهم، والاحترام المتبادل، وخلق جو حواري مناسب وهادئ، وأن يعتمد الحوار على حقائق ثابتة ومعلومات صحيحة.

ومن أهم آداب الحوار: التحكم في مشاعر القلق والارتباك أثناء التحدث، وإظهار الاحترام للمُحاوِر وتقدير وجهة نظره، والتفاعل عند طرح الأفكار والآراء الشخصية، والتجرد أثناء الحوار وعدم التأثر بالأحكام والمواقف السابقة، والإنصات الجيد للمُحاوِر والتفاعل مع آرائه.

ومن أهم معوقات الحوار الجيد: التعصب للرأي والإصرار عليه، والغضب عند الحوار، وعدم الاستماع الجيد لآراء الآخرين، والمراء وعدم تحرى الصدق في الطرح، وعدم الاقتناع بالتعدد والاختلاف، وضعف القواسم المشتركة ونقاط الاتفاق بين المتحاورين، وعدم الالتزام بالأسلوب الفعال للحوار.

وللحوار أهداف تربوية منها: الدعوة إلى الحق وبيانه وإقناع الناس به، وكشف الباطل ورد الادعاءات الفاسدة، والتعلم وذلك من خلال السؤال والجواب، وتقريب وجهات النظر بين المختلفين.

والحوار من المقومات المهمة للبناء القصصي أو المسرحي، فهو يضفي على القصة أو المسرحية لمسة حية؛ لأنه يخفف من بعض الرتابة التي تفرض نفسها على السرد القصصي، فيريح القارئ من المتابعة، ويبعد عنه الشعور بالملل، ويجعل القصة أو المسرحية تبدو في نظر الطفل أكثر واقعية، كما يعين على إبراز فكرة القصة أو المسرحية، وتجسيد وقائعها، والتعبير عما يجيش في نفوس الشخصيات من إحساسات وانفعالات.

والحوار من أهم الوسائل التي يعتمد عليها الكاتب في رسم الشخصيات، فهو يساعد على التصوير الواضح لها، فالشخصيات لا تبدو واضحة إلا إذا بدت من خلال القصة أو المسرحية وهي تتناقش وتتحدث، وفوق ذلك فإن الحوار يجعل القصة أو المسرحية أكثر تشويقًا حين يجد الطفل شخصيات قصته تتخاطب وتتصارع، كما يحدث تمامًا في مواقف الحياة والطفل يستمع إلى ردود أفعالها في كل موقف.

وكثيرًا ما يكون الحوار السلس المتقن مصدرًا من أهم مصادر المتعة، فعن طريق اتصال الشخصيات بعضها بالبعض الآخر اتصالًا صريحًا ومباشرًا تبدو الأحداث وكأنها تضطلع حقًا بتمثيل مسرحية الحياة؛ ولذا فإن الحوار المعبر سبب من أسباب حيوية السرد وتدفقه، وسبب من أسباب تطور الأحداث واستحضار الحلقات المفقودة منها، ولكن وظيفته الحقيقية هي رفع الحجب عن عواطف الشخصية وإحساساتها المختلفة، وشعورها الساخن تجاه الأحداث أو الشخصيات الأخرى، وهو ما يسمى عادة بالبوح أو الاعتراف، على أن يكون ذلك بطريقة تلقائية تخلو من التعمد والصنعة والافتعال.

ويجب أن تتوافر في الحوار عدة شروط، منها:

- أن يكون قصيرًا وموجزًا ومحكمًا.
- أن يتوافق الحوار مع العناصر الأخرى للقصة، ويتناسب مع المواقف والأحداث، ويعبر عن طبيعة الشخصيات لا طبيعة الكاتب نفسه.
- ألا يكون الحوار وسيلة يطرح من خلالها الكاتب التوجيهات والنصائح والعظات؛ لأن ذلك يفقد القصة أو المسرحية قيمتها، وإذا كان الكاتب يتوخى هدفًا خلقيًا أو دينيًا أو علميًا فعليه أن يتبع الأسلوب الذي يجعل القارئ يدرك هذا الهدف، دون أن يقحمه في الحوار بين شخصيات القصة.
- أن يكون الحوار طبيعيًا لا تناقض فيه، وأن يقبله عقل القارئ أو السامع [٣].

الاستفادة من التراث: وذلك عن طريق:

١. حماية وتعزيز التراث

فينبغي حماية وتعزيز التراث سواء كان ماديًا أو لا مادي، كالعادات والتقاليد والقيم، والأمثال والحرف الشعبية، وغيرها، وذلك من أجل ربط حاضر الطفل ومستقبله بماضي أمته، مما يسهم في تنمية الانتماء والولاء للوطن وتأكيد الهوية، ويمكن تبسيط المادة التراثية أو غيرها من مادة تناسب موضوع العمل على شكل قصة أو قصيدة أو مسرحية أو مقالة، ومن صوره مثلًا: أن نعرِّف الأطفال بشخصية تاريخية مهمة، ونجعلها تتحدث عن نفسها، وعن مولدها ونشأتها وإنجازاتها، مع استعراض لنماذج من إبداعاتها وأعمالها بأسلوب مبسَّط ومناسب، ويعتبر الشعر أكثر الأجناس الأدبية طواعية لاستثمار التراث، وأكثرها مقدرة على استلهامه، ومن شأنه مثلًا: أن نعرِّف الأطفال بالعادات والتقاليد والقيم والأمثال والحرف الشعبية، وغرس القيم والمثل في نفوسهم، حيث تترسخ في الأذهان من خلال التمييز بين الغث والسمين، وفرز العادات والتقاليد القديمة التي منها ما هو صالح ومنها ما هو طالح، بالإضافة إلى توسيع آفاق معارفهم، وإكسابهم الخيال الخصب، ومعرفة تاريخ الأجداد، والحفاظ على ثقافتنا المحلية.

فالثقافة المحلية المتوارثة أو التراث هو كل ما تركه لنا الآباء والأجداد من إرث مادي ومعنوي، وهو مصطلح يضم العادات والتقاليد، والقيم الثقافية والروحية؛ لذا يجب المحافظة على هذا الإرث، وتكمن أهمية هذا التراث في أنه لا يشكل فقط جزءًا مهمًا من ماضينا ولا أرضية صلبة لحاضرنا، ولكن لأنه يرسم لنا خارطة طريق ومنهاج عمل ليضيء الطريق لمستقبل أطفالنا وما نرجوه دومًا وسوف نكون عليه مستقبلًا [٤].

والتراث يصبح ذا مكانة أكثر تميُّزًا عندما يتعلَّق الأمر بأدب الأطفال، وذلك ينبغي توظيفه والاستثمار فيه، وقد اعتمد توظيف التراث مع بدايات ظهور أدب الأطفال، وتمكَّن أدب الأطفال أن يعمل على تحقيق نهضة متكاملة في تاريخه الحديث.

وتوظيف التراث أو غيره في أدب الأطفال يعني استحضار فترات محدَّدة من التاريخ "سواءً من خلال مواقف أو حوادث أو شخصيات"، أو استلهام قصص وحكايات وقصائد وفكاهات ونوادر وأمثال من التراث الشعبي، أو استغلال كتب تراثية عالمية ككتابي: (كليلة ودمنة)، و(ألف ليلة وليلة) اللّذين يحتويان على الكثير من الحكم والمواعظ، وأجواء من السحر والدهشة، والمرح والفكاهة بما تتضَّمنه من المعاني الإنسانية، ثم انتقاء ما هو مناسب للطفولة، واختيار النماذج التي تستحق أن تكون مثلًا للأطفال، ثم العمل على إعادة صياغتها وتحويلها إلى قصص ومسرحيات مبسَّطة، وإلى قصائد شعر وأغان، وإكسائها لونًا يتناسب وروح العصر الذي يعيشه الطفل، وينجذب الأطفال بشكل كبير نحو الأعمال التي تتخذ طابعاً تراثيًا، وتبلغ فيهم مبلغ العقل والوجدان، كونهم يتعايشون مع الطقوس الشعبية أولًا، ولأنها تحمل النكهة الساحرة واللغة الجميلة ثانيًا.

وتكمن أهداف التوظيف في أن يطّلِع الأطفال على تراثهم، بالإضافة إلى توسيع آفاق معارفهم، وإكسابهم الخيال الخصب، إلا أن هذه العملية تحتاج إلى شروط معيَّنة لتحقِّق أهدافها، وأهم عنصرين للتعامل مع التراث كما يحدِّدها الشاعر(سليمان العيسى)، هما: الرؤية الجديدة، واللغة الجديدة، فالرؤية الجديدة تعني الحاضر، وتبعث الحياة فيه، وتجعله دومًا جديدًا في شراييننه، واللغة الجديدة هي الوسيلة التي تجعل من هذا الماضي البعيد شيئًا قريبًا إلينا ومألوفًا منا.

إذن لا بدَّ لنجاح عملية التوظيف من قراءة التراث قراءة جيدة، وفهمه فهمًا سليمًا، وتقديمه برؤى وعاطفة جديدة؛ ليستطيع التأثير في المستقبل، وتغييره نحو الأفضل، أي قراءة معاصرة للتاريخ ضمن معادلة دقيقة، ومزج ساحر بين الأصالة والمعاصرة في وعاء رائع وجميل، وهذا لا يعني التغيير في صلب الموضوع، أو تحويله عن حقيقته، كما أنه في الوقت عينه لا يعني اعتماد الجمود والتكرار، والاكتفاء بالتقليد واجترار الماضي؛ بل عملية منظَّمة ومدروسة، يُستوحى منها ما يخدم الحاضر والمستقبل، دون الإساءة للماضي، كما لا بدَّ أن يحقِّق هذا التوظيف الأهداف التربوية والأهداف الفنية معًا.

ويعرف التراث الشعبي لشعب من الشعوب على أنه كل ما ورثه هذا الشعب من عادات وتقاليد، وفنون ومقتنيات مادية، وغير ذلك عن أسلافه؛ حيث يعتبر التراث الشعبي علامةً مميزة وفارقة لكل شعب، بحيث يتميّز به عن باقي الشعوب الأخرى، وتتشكّل به هويته الخاصة. أمّا التراث الإنساني فهو أوسع من التراث الشعبي؛ إذ يتكوّن من كلّ ما توارثته الشعوب الإنسانية عن أسلافها جيلًا بعد جيل، وحضارة بعد حضارة، إلى أن صار التراث اليوم غنيًّا جدًا بمكوّناته وعناصره(٥) ومشكلاته والتنبؤ بالمستقبل، وهو الأمر الذي يعد أساس قيام الحضارات على تنوّعها؛ ومن هنا فإنّ الحفاظ على التراث يُعتبر من أولى

الأولويات على الإطلاق، غير أنّ العولمة ونمط الحياة المتسارع صعَّب المهمة بشكل كبير على المهتمين بحفظ تراثهم وتوريثه للأجيال اللاحقة[٦].

ومن أهمّ طرق حفاظ الأفراد على التراث تعريف النشء الجديد به في المدارس ومنذ الصغر؛ حيث يكون ذلك من خلال الطرق المناسبة التي تتناسب مع كافة المراحل العمرية، إلى جانب ذلك فإنّ مسئولية الحفاظ على التراث تقع أيضًا على عاتق الأهل في البيت، فتتصل الأهل من هذه المسئولية مع ميل البعض منهم إلى حشو أدمغة الأطفال بمبادئ الثقافات الدخيلة واللا إنسانية في بعض الأحيان قد يعمل على أن تستبدل بالتراث بما يتضمّنه من مكوّنات جميلة وسامية الأفكار الهدّامة؛ ممّا سيؤدّي في نهاية المطاف إلى ضياع الهويات الخاصّة بالشعوب المختلفة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ حفظ التراث يستلزم من الأفراد النظر إليه باعتباره مكونًا مهمًا وأساسيًا من مكونات شخصياتهم، وأنّه نبراس المستقبل، في حين تتأثر هذه الرؤية بمستوى تعليم الفرد وإيمانه بضرورة حفظ هذا التراث وإيلائه الجهود اللازمة لتقديره وحفظه.

ومن أهم الوسائل التي تساعد على تطوير التراث تطوير طرق عرضه، وتضمينه في المناهج المختلفة بالشكل الذي يتناسب مع مستويات الطلبة وقدراتهم الإدراكية، فعرض التراث بالطرق الجامدة لن يخدمه أبدًا، بل على العكس؛ فإن ذلك سيتسبّب في نفور الناس منه، ممّا يؤدّي إلى إهداره وضياعه لصالح الثقافات الأخرى، وبما أنّ المواقع الأثريّة والسياحيّة تُعتبر جزءًا من الإرث الحضاري لشعب مُعيّن من الشعوب، فإنّه ينبغي الاهتمام بها وتأهيلها من الناحية السياحيّة حتى تصير من نقاط الجذب السياحية المهمة في الدولة، كما يجب نشر التراث خارج البلاد من خلال الجهات المعنية، والمواطنين الشرفاء الذين ينتمون إلى أرضهم ووطنهم، وقد يتطوّر التراث أحيانًا عندما تتلاقح الشعوب المختلفة؛ ممّا يؤدي إلى ظهور العديد من المكونات التراثية المهمة والجديدة.

٢. توثيق العلاقة بين التراث والأدب الموجه للأطفال

يعد التراث من الينابيع الأولى التي أعطت الأدب مادة ثرية، وغنية لا تنضب. فقد أتاح التراث للأدباء أن يقتبسوا منه ما يشاؤون من الأشكال، وموضوعات التراث العربي من حكايات وأخبار عن البخلاء والمغفلين والأذكياء، ونوادر جحا، وغيرها من الشخصيات الفكاهية، ومنها أيضًا بعض الكتب التي كان تأثيرها على الآداب العالمية كبيرًا وواضحًا ككتاب (ألف ليلة وليلة) و(كليلة ودمنة)، وغيرها، وهذا التراث الحافل بهذه الظواهر في حاجة إلى إعادة الصياغة والتوظيف والتبسيط؛ ليكون في متناول المتلقي الصغير ليكون الهدف منه: تعريف الأطفال بتراثهم، وببعض جوانب تاريخهم، وتعميق الانتماء العربي والإسلامي لدى الأطفال، عن طريق الحكايات المستلهمة من هذا التراث، وتقديم البطولات العربية من أجل غرس قيم الشجاعة في نفوس الأطفال، وتنمية الخيال لدى الأطفال، وتعتبر

الحكايات الشعبية والخرافية، والأسطورة، وقصص الحيوان من أكثر مصادر التراث توظيفًا في أدب الاطفال: قصةً، وشعرًا(٧).

وهناك اعتبارات مهمة ينبغي مراعاتها عند نقل التراث الموجه إلى الطفل، منها: الحرفية العملية في تدوينه، ونشره بغرض التوثيق والبحث، وإبراز القيم الإيجابية في التراث وإسقاط ما يتناقض مع القيم الروحية والوطنية والحقائق العلمية الثابتة، مع عدم إغفال دور الخيال في تنمية الوجدان، وتوسيع البهجة والمتعة والطرافة، وجاذبية المظهر وتوافقها مع المحتوى، وضرورة عدم إبراز الحلول السحرية والأسطورية للمشكلات والمصاعب والمآزق التي يتعرض لها الإنسان في القصص الشعبية التي تصاغ للأطفال، حتى لا يضعف وعي الطفل بالقدرات الواسعة للإنسان في خوض معاركه في الحياة، وطرق حل مشاكله بقدراته الذاتية والجماعية.

وعند الحديث عن الحكايات الشعبية والحكايات الخرافية كمصدر من مصادر التراث في أدب الطفل نجد أن أشكال الحكايات الشعبية والأخبار والسير الشعبية، وهي مروية، نسجها الخيال الشعبي وتداولها الناس جيلًا بعد جيل، مضيفين إليها ومحورين فيها، وهي حكاية يصدقها الشعب بوصفها حقيقة، وتتطور مع العصور وتتداول شفاهًا، كما أنها قد تختص بالحوادث التاريخية، أو الأبطال الذين يصنعون التاريخ.

والحكايات الشعبية تختار شخوصها من الناس العاديين، ولا وجود فيها لكائنات خارقة، أو أحداث غير قابلة للتصديق، أي أنها قصص يقل فيها عنصر الفنتازيا، وكثير منها ما تتصل بحادثة طريفة أو مثل شعبي، وذلك لتتبني من خلالها قصة بسيطة بقصد التسلية، أو الموعظة، أو إبلاغ رسالة إجتماعية، أو سياسية معينة، وما وصلنا من قصص الأمثال البغدادية شفاهًا وتدوينًا أو المقامات وحكايات الشطار والعيارين أو قصص الحب الشعبية الواردة في الكتب التراثية، أو الطرائف، والأكاذيب التي تروى بقصد الإضحاك يقع ضمن هذه المجموعة.

وهناك نوع من الحكايات الشعبية التي تسمى بحكاية الجن أو (الحكايات الخرافية)، وهي قصص تدور أحداثها في مكان يدعى أرض العجائب مليء بالسحر والشخصيات الغريبة(٨).

ويوظف أدباء الأطفال الحكايات الشعبية؛ لما تحتضن من تشويق وإثارة، وهذا ما وجدناه قديمًا في شعر أحمد شوقي، ومحمد عثمان جلال، إلا أن انتقاء السير الشعبية كان يدعو أدباء الأطفال إلى الاهتمام بالشخصية دون العناية بالمضمون القصصي التراثي، أو جنوحهم إلى رسم الماضي في صور بهية، وبلغة عالية ومتينة.

والأسطورة هي حكاية ترتبط بعقائد دينية محددة، موغلة في القدم، وتتصل بالظواهر الكونية الخارقة، ويتخذ أبطالها من الآلهة أو أنصاف الآلهة الذين يتخذون أشكالًا آدمية، لهم مغامرات، ويمرون بأهوال عظمى، وتكون لهم أفعال خارقة، والفرق بينها وبين

الخرافة هي أن الأخيرة ما هي إلا حكاية نثرية قصيرة تبرز أحداثًا تتراءى من خلالها أحداث وشخصيات واقعية، وهي لا تحمل طابع القداسة كالأسطورة، بل تحتوي بطولات ملأى بالمبالغات والخوارق، إلا أن إبطالها الرئيسين هم من البشر أو الجن، ولا دور للآلهة فيها[٩].

التنشئة الاجتماعية

تلعب التنشئة الاجتماعية للفرد دورًا مهمًا في اكتساب القيم، بالإضافة إلى ظروف احتكاكه وتفاعله مع الأفراد والجماعات، فضلًا عن انتماءاته الأساسية التي تعمق أو تضعف من هذه القيمة أو تلك، ولا مساحة في أنه لا يمكن تناول القيم كمقولة عامة أومطلقة بغض، النظر عن ظروف وشكل العلاقات الاجتماعية الاقتصادية في فترة زمنية محددة؛ إذ القيم - في المحصلة النهائية - تركيب فوقي تتأثر بظروف ومواصفات العلاقات الإنتاجية في المجتمع المعني، بيد أن الأنظمة القيمية السائدة - بالفعل - لها تأثيرها في تشكيل ملامح الحياة في المجتمع، وتعتبر تنشئة الطفل الهدف الأسمى إذا ما أردنا للمجتمع أن يرقى وينهض، وإذا ما أردنا له النماء اجتماعيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا.

ومرحلة الطفولة هي المرحلة العمرية الأولى التي يمرُّ بها الإنسان في بواكير وجوده الذاتي والاجتماعي، والتي تُحدَّد سماتها في أنماط من السلوك والميول، وأوجه النشاط المؤسسة على خصوصية في البناء الجسدي والعقلي، والتمثيل اللغوي، وأساليب اللعب والحركة، ووسائل التعبير عن المشاعر والأحاسيس، والحاجات وسُبل إشباعها، وتشكِّل البيئة الاجتماعية المحيطة بالطفل العامل الأساسي في تحديد أنماط سلوكه وتكوين أفكاره، وفي صياغة نظرته الخاصة للحياة.

إن مجال أدب الأطفال، بما يتضمنه من قصص وأشعار ومجلات وكتب ومسرح وأفلام وبرامج إذاعية مسموعة ومرئية، مجال مهم، له دوره في التنشئة.

تعميق الانتماء وتأكيد الهوية

فمع بزوغ الثورة المعلوماتية وثورة الاتصالات الجديدة، وأن ثورة التكنولوجيا الجديدة تغزو جسده وترسم خريطة جينية تحدد مستقبله، ويعد (الانتماء) و(الوطنية) من جوهر الهوية، والصورة تتوقف على عوامل توظيف التقنيات التكنولوجية. ففي عصر السماء المفتوحة لن يستطيع أحد منع الصغار من ارتياد المحطات الفضائية، وليس عليهم سوى اختيار المناسب منها بالإقناع، وما يُذكر عن الفضائيات يُذكر عن شبكة الإنترنت، ولا يبقى سوى مصادقة الآباء للصغار والتوجيه الخفي الذي لا يتسم بالجبرية، أو التلقين المباشر لتأتي معاملة الآباء للصغار كخطوة عملية وإيجابية لتحقيق هذا الهدف، وتشمل محاور الهوية الثقافة عامة، والأدب والإعلام، والدين والسياسة والفن، وتتضمن المهارات والقيم، ولايمكن إغفال أهمية وخطورة أدب الاطفال في تشكيل فكر ووجدان الصغار، والبعد عن المباشرة، ولا شك أن التعرف على التراث الشعبي والتعامل معه، والتعرف عليه يثري

مفهوم الهوية، ويعد مفهوم (الانتماء) من أقدم المفاهيم التي قد تبدو فطرية أحيانًا. وإن تعددت محاولات تقنين المصطلح، فالدلالة لا خلاف حولها، وهو ما يمكن أن نلمحه في التراث الشعبي عمومًا، وفي الأغاني والألعاب الشعبية خصوصًا.

تطبيقات عملية

رصد لبعض الحوارات التي جاءت في قصص ومسرحيات كبار أدباء الطفل العربي؛ للوقوف على دور الحوار في تربية النشء: (مسرحيات الشاعر الكبير أحمد سويلم، وقصص الكاتب الكبير يعقوب الشاروني نموذجًا).

ففي مسرحية (الحارس الأمين)، للشاعر أحمد سويلم:

الفصل الأول يبدأ بحوار بين الديك والأم، ينص على ما يلي:

ـ الديك: أريد أن أخرج للنزهة يا أماه، ألعب فوق الخضرة.

ـ الأم: لك ما تشاء يا بنى، لكن حاذر من حيوانات الغابة.

ـ الديك: لا توصيني يا أماه، فأنا آخذ حذري من حيوانات الغابة ذات الأربع.

ـ الأم: تمامًا يا ولدي، وأتمنى ألا تتأخر حتى لا أقلق.

ـ الديك: أمرك يا أماه.

نلاحظ في هذا الحوار الراقي بين الأم وولدها الاحترام والمحبة، والثقة المتبادلة بينهما، وإعطاء الأبناء قدرًا مناسبًا من الحرية؛ بهدف التنشئة السوية السليمة.

وفي مسرحية (الثعلب الحسود)، للشاعر أحمد سويلم، الفصل الأول حوار بين الثور والثعلب، ينص على ما يلي:

ـ الثور: أخبرني أيها الثعلب.. ماذا عن غابتكم، أصحيح أن لديكم قانونًا يحكم أن الأقوى يفتك بالأضعف.

ـ الثعلب: غابتنا يا صديقي غابة أمن وسلام، فيها عدل وعقاب وثواب، لا فرق هنا بين الأقوى والأضعف، أو بين صغير وكبير إلا بالعقل وبطاعة مولانا الأسد.

ـ الثور: حسنًا هذا ما أعنيه، فأنا يسعدني أن أحيا في أمن وسلام.

نلاحظ في هذا الحوار الراقي بين الثعلب والثور، الاحترام والتقدير، والحوار العاقل المتزن المتسم بالسلام والود والمحبة، ويقدم للطفل تعريفًا بمجتمع السلام والعدل.

قصة (جحا في السوق)، للكاتب الكبير يعقوب الشاروني:

حوار بسيط جدًا بين جحا والتجار في السوق، ينص على ما يلي:

ـ قال أحد التجار لجحا: هذا الحمار لن يشتريه أحد، فهو يعض ويرفس.

ـ فقال جحا: لم أصطحب حماري معي إلى هنا لأبيعه، إنما جئت به ليرى الناس مقدار ما يصيبني من أذاه.

نلاحظ هنا جانب في غاية الأهمية لأدب الطفل، وهو تحقيق المتعة من القصة، وجانب المرح والفكاهة التي يجب أن يتميز بها أدب الطفل؛ مما يسهم في التنشئة النفسية السوية للطفل.

وفي قصة (الكلام والدواء)، للكاتب الكبير يعقوب الشاروني:

حوار بسيط جدًا بين اثنين من شعراء العرب، ينص على ما يلي:

ـ قال أحدهما للآخر: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟.

ـ قال الآخر: هي أكثر من أن تحصر، وقد وجدت خصلة أو عادة، إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها.

ـ فقال الأول: وما هي؟.

ـ فأجاب الآخر: حفظ اللسان.

ـ وقال قول عمرو بن العاص "الكلام كالدواء" إن قللت منه نفع وإن أكثرت منه قتل.

نلاحظ هنا قيمة تربوية في غاية الأهمية، وهي حفظ اللسان عن قول الكذب والزور والنفاق والغيبة وغيرها من مصائب يقع فيها المرء بلسانه[١٠].

توظيف التراث، وحمايته وتعزيزه ، قصة (تائه في القناة)، للكاتب يعقوب الشاروني:

عندما نتعرض لقصة (تائه في القناة) التي تحكي عن فترة حفر قناة السويس ومعاناة الشعب المصري، وموت الأهالي تحت الشمس الحارقة والجوع والعطش، وتنفيذ القرارات الجائرة، والتحكم في المصائر والأرزاق.

فالقصة تدور عن الخالة (أم مصطفى) التي أخذوا ابنها الأكبر ليعمل في حفر القناة، وهوعائلها الوحيد بعد موت أبيه، وقد فقدت الأمل في عودته، فقد مرت شهور كثيرة وكان من المفترض عودته بعد شهر واحد، وتخشى أن يأخذوا ابنها مسعود الذي يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، ويأتي شيخ البلد (مخلوف) واثنان من الخفراء ومعهم أبو لبدة زرقاء، وهو الاسم الذي أطلقه أهل قرى مديرية المنيا على مندوب جمع العمال اللازمين لحفر قناة

صحراء السويس، ويسأل كل هؤلاء عن مسعود ولدها الصغير، ولكنها تنكر وجوده، وتقول "ابني مسعود في الغيط منذ الفجر"، وبدون استئذان يأمر شيخ البلد الخفيرين بالبحث عنه، ويقتحم الدار ولا يجد سوى (محسن) الابن الأصغر، فيجذبه خلفه والولد يصرخ ويحاول التخلص من قبضته، بينما أخته (أزهار) أربع عشرة سنة تمسكه من ذراعه الأخرى تحاول إنقاذه من قبضة الخفير القوية، وهي تصيح: "لن تخطفوا أخي الصغير، سيموت بين أيديكم".

نكتشف من خلال سياق القصة ومن حديث الخالة (أم مصطفى) أن شيخ البلد كان يريد أن يتزوج (أزهار) الطفلة الصغيرة، ونتيجة لرفض أمها ينتقم منها (مخلوف)، ويسحب أولادها واحدًا تلو الآخر برغم صغر سنهم. ويأخذون (محسن) من بين أحضان أمه، ويخبرها أنه سيبقى في حجز دوار العمدة إلى أن يسافر مع المسافرين لحفر القناة، إلا إذا أحضرت (مسعودًا).

وهنا يتعلم الطفل تاريخ بلاده والحفاظ على كل شيء تركه لنا الآباء والأجداد، هؤلاء الذين ماتوا وهم يحفرون القناة، فهل نفرط في الأرض؟ هل نفرط في العرض (أزهار) تلك الطفلة الصغيرة التي يريدون اغتصاب طفولتها وحياتها، يتعلمون الحفاظ على العادات والتقاليد، وهنا معالجة بعض الأخطاء التي كانت تتم في مجتمعاتنا، كالزواج المبكر حتى وإن كان يحدث في السابق وما زال يحدث، إلا أن من واجب الكاتب توضيح ذلك للأجيال الجديدة دون مباشرة.

كان أهل (شارونة) يعرفون أن (مخلوف) شيخ البلد قد طلب من الخالة (أم مصطفى) أن يتزوج ابنتها (أزهار) وهو يقتص منها ومن أولادها؛ لأنها لم تحقق له رغبته، ومن هنا تبدأ معاناة الخالة (أم مصطفى) ومعاناة (مسعود) الذي ذهب بدلًا من أخيه الصغير هو وثلاثمائة من مختلف قرى المركز حتى ضاق بهم الحجز، ويأتي لنا بمعاناتهم في الحجز، ثم في القطار، وتحدي شيخ البلد (مخلوف) لهذا الطفل الصغير، فينقض بعصاه على كتفه، ويتهمه أنه يحاول الهرب، ثم معاناته في السفينة التي تنقله من شاطئ مغاغة إلى القاهرة، ثم ينتظرون بعد ذلك ترحيلهم إلى الصحراء، ومعاناة الجوع والعطش في الصحراء، والضرب القاسي والعمل تحت أشعة الشمس الحارقة والعطش الشديد، وما زال (مخلوف) يمارس ضغوطه على الصغير وهو يهبط بالقفة فارغة إلى قاع القناة حيث يملؤها بالصخور والأحجار التي حطمها رجال (الفريق الأقوى)، ثم يحملها فوق كتفه ويصعد إلى جسر القناة ليفرغها، ثم يهبط مرة أخرى ليعاود نفس العمل، وعندما يهم بالاستراحة قليلًا يجلده (مخلوف) بأمر مندوب الشركة، حتى فقد وعيه واعتقدوا أنه مات، ويأتي الطبيب ويطلب نقله فورًا، ويبدأ في معالجته، ويكتشف قدرته على التحمل حتى يسترد عافيته ويحاول أن يهربه من المكان، ويلقى (مخلوف) نفس المصير بضربه حتى الموت، ويعرف (مسعود) طريق أخيه من خلال الطبيب ويلتقي به بعد معاناة، ويخبر أمه بوجودهما في القاهرة، ويشتغلان هناك حتى ينسوا أمره، وينهي القصة بقيام الرئيس جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦.

الأغاني الشعبية والأمثال والحواديت

فالأغاني الشعبية والأمثال والحواديت، كمحاور ثقافية فعالة في تربية وتنشئة الطفل، حيث تدعو إلى ترسيخ القيم النبيلة، وتنشيط النفوس بالمرح والحكمة، فضلًا عن الإحساس بالأصالة والانتماء... وتتعدد العناصر، ومنها الأهازيج الشعبية، مثل: أهازيج التنويم، وأهازيج البنات، وبالذات تلك التي تغنى للمواليد والأطفال، وتلعب الأمثال والحواديت دورًا في تربية وتنشئة الطفل، فالأمثال هي خلاصة الحكم والتجارب المنقولة من جيل إلى جيل بلغة بسيطة، وتشمل جميع جوانب ومواقف الحياة، وتخاطب جميع فئات المجتمع، ومنها أمثال غير متداولة الآن نظرًا لارتباطها بمكونات بيئية اندثرت بسبب المستحدثات التي غيرت معالم المجتمع المادية، فالأمثال التي تحوي مرادفات، مثل: (قلة، وزير، وطنبور، ومشنة... وما إلى ذلك) لا يعيها الطفل، وعلى ذلك يضيع معنى المثل بسبب صعوبة تدارك هذه المرادفات، وعلى ذلك ينبغي إعادة صياغة الحواديت والأمثال بحيث تناسب الأطفال وواقعهم المعيش من مفردات ومستجدات حديثة لتدارك معناها ومغزاها.

خاتمة

في ضوء ما تقدم من إسهامات أدب الطفل الذي نراه ما هو إلا تأكيد على فلسفة الجمهورية الجديدة التي تؤسس دعائمها على عدم التمييز أو التفرقة بين أية فئة من فئات المجتمع بسبب الدين أو الجنس أو العرق، في ظل دولة يحكمها القانون والعدل والمساواة، وإرساء مبادئ سيادة القانون، وتحقيق المساواة بين المواطنين جميعًا.

توصيات:

١. تعريف الأطفال بتراثهم، وببعض جوانب تاريخهم.

٢. تعميق الانتماء العربي والإسلامي لدى الأطفال، عن طريق الحكايات المستلهمة من هذا التراث.

٣. تقديم البطولات العربية؛ من أجل غرس قيم الشجاعة لدى الأطفال.

المراجع:

١. أ.د. محمود محمد علي: فلسفة الجمهورية الجديدة، دار الوفاء، ٢٠٢١.

٢. د. سعد العتابي: أدب الطفل وأهميته في تشكيل شخصية الطفل، العدد ١٦، مجلة مسارب.

٣. أ.د. جيهان عمارة: أدب الطفل العربي، ودوره في تعليم أطفالنا أدب الحوار ، مجلة البحث العلمي في التربية، جامعة عين شمس، ٢٠١٦.

٤. موسوعة أعلام الفكر العربي... جزء (٢)... مكتبة مصر.

٥. عبد المجيد إبراهيم قاسم: توظيف التراث في أدب الأطفال، منتدى ديوان العرب، نوفمبر، ٢٠٠٦.

٦. د. مرسي السيد مرسي الصباغ: دراسات في الموروث الأدبي الشعبي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٠.

٧. د. محمد لبيب النجيحي: الأسس الاجتماعية للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١.

٨. عبد التواب يوسف: الطفل والموروث الشعبي، منشورات دار ثقافة الأطفال، ١٩٨٩.

٩. يعقوب الشارونى: القيم التربوية في قصص الأطفال، الهيئة العامة للاستعلامات، ٢٠٠٢.

١٠. نفس المرجع (٣).